الفصل الخامس

اليهود فى عقل جارودى

ما هو موقف روجيه جارودى من اليهود ؟ هل هو حقاً معاد لليهود واليهودية (معاد للسامية) كما يدعى الإعلام الغربى ؟ للإجابة على هذا السؤال لابد أن ندرس فكر جارودى فى كليته .

الشوق إلى النجوم :

هناك رؤيتان للعالم : واحدة تبدأ من المادة وقوانينها الرتيبة المطـردة وتذهب إلى أن الإنسان ليس إلا كائنًا طبيعيًا ماديًا ، لا يختلـف عـن الكائنات الأخرى ، يسرى عليه ما يسرى عليها من قوانـين طبيعيـة حتمية ، ولذا فليست له أهمية خاصة فى الكون. أما الثانية فتبدأ مـن معجزة الإنسان وتذهب أن يختلف بشكل جوهـرى وجـذرى عـن الكائنات الأخرى (رغم وجود بعض السمات المشتركة بينهما) ولـذا فهو يشغل مركز الكون ، وبينما تؤكد الرؤية الأولى أصـل الإنسـان الأرضى (وتتحدث عن تطوره من الأميبا والزواحـف والقـوارض والقردة العليا) وعن عجزه عن تجاوز قوانين الحركة الماديـة ، تؤكـد الرؤية الثانية أصله السماوى أو الربانى وتتحدث عن شوقه إلى النجـوم

وعن مسئوليته وحريته ومقدرته على تجاوز عالمه المادى ، وصولاً إلى قبة السماء واللامتناهى .

والمفكر الفرنسى رجاء جارودى ينتمى إلى دعاة الرؤية الثانية المتمركزة حول الإنسان . فهو يتحدث فى كتابه تطور فكر ماركس عن «الحلم الفاوستى» ، أى محاولة الإنسان الوصول إلى اللامتناهى ، وعن الإنسان باعتباره كائنًا مسئولاً ، صاحب إرادة حرة ، لا يمكن فهم سلوكه إلا فى إطار شوقه إلى اللامتناهى .

إن جارودى ، منذ بداية رحلته الفكرية ، قد نصَّب نفسه مدافعًا عن الإنسان ضد الظلم والزيف ، وضد تلك الحركات الفكرية التى تهاجمه وتحاول إنكار حريته ، بل ونفى وجوده ، والتى تصاعدت حدتها منذ منتصف الستينيات . ففى كتابه البنيوية ، فلسفة موت الإنسان يسأل جارودى : هل يقودنا موت الإله بالضرورة إلى موت الإنسان ؟ ويمكن طرح السؤال بطريقة أخرى : هل يؤدى اختفاء اللامتناهى إلى اختفاء الإنسان ؟

ويقول جارودى إن الفلسفة البنيوية هى فى جوهرها إنكار للتسامى ونفى للإنسان ، فقد جعلت من الإنسان مجرد نقطة تَقاطُع لعلاقات تتجاوز الإنسان ، بل إن الإنسان يصبح حادثًا عرضيًا فى تاريخ الكون ؛ مجرد مقولة فكرية من اختلاق فكرة نهاية القرن الثامن عشر . ويواكب تضاؤل الإنسان تضخم مفهوم البنية التى تصبح جوهرًا منفصلاً تمامًا عن الممارسة الإنسانية . ويظهر التاريخ الإنسانى باعتباره تاريخًا من

تلقاء نفسه بدون مبادرة إنسانية ، بل وبدون بشر . وينتهى الأمر بالبنيوية إلى أن تؤسس علومًا إنسانية تم إزاحة الإنسان منها ، إذ يذوب الإنسان تمامًا فى البِنَى المجردة له .

انطلاقًا من هذا الموقف المعادى للإنسان ، يذهب ألتوسير – البنيوى الماركسى – إلى أن الإنسان رهن بالظروف المحيطة بـه ، ويؤكد أن الماركسية العلمية (كما يفهمها هو) هى مذهب غير مكترث بالإنسان معاد للإنسانية (الهيومانية) وللتاريخ . ويصل هذا العداء للإنسان إلى قمته فى أعمال المفكر البنيوى ميشيل فوكو الذى يقول : «لا يسع المرء إلا أن يقابل بضحك فلسفى كل من لا زال يريد أن يتكلم عن الإنسان وعن ملكوته أو تحرره» . «فالإنسان ليس أقدم المشكلات التى تم طرحها على المعرفة الإنسانية ولا أكثرها ديمومة فالإنسان اختراع يبيِّن لنا علم آثار فكرنا ، بيسر وسهولة ، حداثة عهده وربما اقتراب نهايته . وسيضمحل الإنسان مثل نقش على رمال الشاطئ تمحوه أمواج البحر ، بدأ العالم بدون الإنسان وسينتهى بدونه ، وما يتأكد فى أيامنا هذه ليس غياب الإله أو موته بقدر ما تتأكد نهاية الإنسان . «وهكذا يتم تفكيك الإنسان المتعين المسئول صاحب الإرادة وصانع الحضارة ليظهر بدلاً منه «فراغ الإنسان المختفى» . وهكذا ننتقل مع فوكو من عالم الحداثة والبنيوية إلى عالم ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية والتفكيكية («بعد الحداثة» هذه التى تقيم الدنيا الآن وتشغل الناس فى بلادنا العربية ، كأننا لا يشغلنا شاغل سوى تلقف ما يقوله الإنسان الغربى وتكراره بموضوعية ببغائية مذهلة ، حتى حينما يبدأ فى صب لعناته

على الإنسان بعد أن لهج بالثناء عليه والحمد له مئات السنين . ألم يكن من الأجدى أن نسأل لمَ سادت البنيوية فى الغرب فى منتصف الستينيات ، ولِمَ انحسرت وسادت ما بعد البنيوية بدلاً منها فى منتصف السبعينيات ؟) .

يقف جارودى ضد هذا الهجوم الشرس على الإنسان ، ويرفض تصاعد معدلات العداء للإنسانية (الهيومانية) وللتاريخ والعقل فى الفلسفة الغربية ، فيكتب كتابه واقعية بلا ضفاف ليؤكد مرة أخرى رفضه للحتميات المادية ، وليؤكد مرة أخرى العنصر اللامتناهى فى الإنسان . ولذا فهو يختم كتابه باقتباس من بودلير «الشعر أكثر الأشياء واقعية ، وهو الشئ الذى لا تكتمل حقيقته إلا فى العالم الآخر ، ثم يُضيف قائلاً: «إن الفن الحقيقى طريقة للتذكير بالامتناهى «ثمة طموح نحو اللامتناهى داخل الإنسان يُرمز له ببرج بابل ، وطالما وجُدِ الإنسان على الأرض فستكون هناك أيضًا تلك الرغبة المتأججة فى بناء البرج» .

قبر يكفى لدفن العالم :

تبلور رؤية جارودى وتتضح معالم خطابه فى كتابه فى سبيل حوار الحضارات ، وهو خطاب تفكيكى من الطراز الأول ، ولكنه ليس بتقويضى ، فهو يطرح البدائل ويُبشر بالمستقبل . ويبدأ الكتاب بـ «مدخل» ، ويبدأ المدخل بجمله دالة مثيرة : «الغرب عارض طارئ» (وليس الإنسان كما تزعم البنيوية وما بعد الحداثة) . ثم يستطرد قائلاً : «إن الغرب استثناء ضئيل بائس فى الملحمة الإنسانية التى

دامت ثلاثة ملايين سنة ، وهى ملحمة بدأت فى أفريقيا واستمرت خلال ستين قرنًا فى جميع القارات ، حتى عصر النهضة الغربى تلكم هى المصادرة الأولى فى كل اختراع يتناول المستقبل» . فالمستقبل بالنسبة لجارودى هو مجال الحرية ، ولكن إن ظلت المركزية الغربية قائمة فإن أبواب الاجتهاد الإنسانى تُغلق ، ويصبح المستقبل ، مستقبل الجميع ، مقررًا مسبقًا ، ويصبح مجال الحرية اللامتناهى قفصًا حديديًا حتميًا ، مثل قوانين المادة ، إذ تصبح مهمة البشر ، فى كل أرجاء العالم ، نقل النموذج الغربى وتطبيقه إما بحذافيره أو بقليل أو كثير من التصرف .

ولكن ما هو الغرب الذى اكتسب هذه المركزية ؟ يقول سيرج لاتوش فى كتابه تغريب العالم: إن الغرب لم يعد بقعة جغرافية ولا مرحلة تاريخية ، فقد أصبح آلة شرسة تدور لتهلك الجميع ، وضمن ذلك القائمين على إدارتها ، أى الإنسان الغربى نفسه . لا يختلف موقف جارودى عن ذلك كثيرًا ، فالغرب جغرافيًا هو «مجرد شبه جزيرة من آسيا ، ملقاة خلف الأورال وعلى شواطئ المتوسط» ، أى إن الغرب الذى يهددنا ليس ماهية جغرافية ، وإنما «حالة فكرية» يحدد جارودى معالمها الأساسية فيما يلى :

١ - ينطلق الغرب من أن الفرد هو مركز الأشياء ومقياسها ، تحركه إرادة الربح والسيطرة والاستهلاك ، وهدف هذا الفرد هو السيطرة على الطبيعة تقنيًا . ولذا فعلاقة الإنسان بالطبيعة هى علاقة فاتح براضخ . وقد طوّر هذا الفرد إرادة الغازى الذى لا يتردد فى

اقتحام نجوم العالم المعروف أو تدمير القارات والحضارات ، وظهرت ديانة جديدة قوامها تحريض الرغبة تحريضًا دائمًا .

٢ - واكب هذا الاتجاه نمو العقل المجرد أو المذهب العقلي ذي البُعد الواحد (العقل الديكارتي وعقل عصر الاستنارة) فتصور الإنسان أن العقل قادر على حل جميع المشكلات ، وأنه لا توجد مشكلات حقيقية إلا تلك التي يستطيع العلم أن يحلها . وأصبح هدف المعرفة هو الرقي بالعلم والتقنيات وظهرت العلمية (أي العلموية) والتكنوقراطية وكلتاهما لا يطرح سؤال لماذا ؟ (المختص بالهدف والغاية) وإنما يطرح سؤال كيف ؟ وحسب ، أي إنها ديانة وسائل وحسب ، ديانة أداتيه بلا ضمير ولا قلب ولا تاريخ . وظهر الإنسان ذو البُعد الواحد الذي يُمجِّد العمل والفعل بشكل وحيد الجانب ، لا يجد تحقيق ذاته تحقيقًا تامًا إلا من خلالهما (وهذا تقليد حضاري غربي شامل ، ينضوي تحته كل من الرأسمالية والاشتراكية) . ومن ثم ظهرت النفعية والوظيفية ، أما الأفعال غير النفعية ، تلك التي تفصح عن عفويتنا العميقة ، حركات الشعر والإبداع الحر ، فقد تم نفيها . في مثل هذا التصور وحيد البُعد تُوجَّه طاقة الإنسان إلى العلم النفعي وإلى الاستهلاك المستمر وينحل الفكر إلى ذكاء ، ولا يجد فيه الحب ولا الإيمان ولا الشعر مجالاً ، وتصبح التقنية هي مقياس الأشياء كافة ، ويصبح النجاح الاقتصادي (الإنتاج والاستهلاك) المعيار الأوحد .

٣ - أدَّت هذه الحالة الفكرية إلى ظهور الفرد ذي البُعد الواحد ، الذي يأخذ شكلين متناقضين ولكنهما يشتركان في سمة أساسية ، واحدية البُعد :

(أ) ظهر الإنسان المتأله ، الذى أصبح إرادة مطلقة والذى يحاول أن يصبح «سيد العناصر وربها» (كما قال الكاتب المسرحى الإنجليزى كرستوفر مارول فى مسرحيته التاريخ المأساوى للدكتور فاوستوس) والذى يحاول أن يتوصل إلى عِلم «يجعلنا سادة الطبيعة ومالكيها» (على حد قول الفيلسوف الفرنسي ديكارت) . هذا الإنسان تسيطر عليه شهوة السلطة والتملك التى تستبعد كل الأبعاد الأخرى لشخصيته .

(ب) ظهر الإنسان العادى الذى يشبه ترسًا فى آلة تطحن الإنسان وتقضى على سماته الفردية ، إنسان منضبط تمامًا ، بيروقراطى ينفذ كل ما يصدر له من أوامر (وقد رسم كافكا صورته بشكل رائع فى اعماله الروائية) . هذا الإنسان تعلّم الإذعان الكامل وأصبح موضوعيًا باردًا ، وعلميًا مرنًا ، واستبعد من شخصيته كل الأشواق والأحلام والرؤى والمقدرة على التجاوز .

٤ - هنا يظهر جانب آخر للرؤية الغربية يسميه جارودى «اللاهائى الكمى» ، الذى يقف على طرف النقيض من اللاهائى الكيفى» الذى يسمو بالإنسان (وهذه توطئة لمفهوم جارودى عن الأسطورة الإنسانية المنفتحة مقابل الأسطورة الفاشية المغلقة ، كما سنبين فيما بعد) .

ويتبدّى اللاهائى الكمى فى نظريات التنمية التى اكتسحت العالم الشرقى والغربى ، الشمالى والجنوبى ، والتى يُبشر بها البنك الدولى ، الذى لا يعرف شرقًا أو غربًا أو شمالاً أو جنوبًا ، فالعالم بالنسبة له حيز بلا تاريخ ، مادة بلا ضمير أو روح ، مجرد مجال تتحرك فيه التقنية

ورأس المال والبضائع دون اكتراث بالأفراد ، تمامًا مثل حركة البنية فى الفلسفة البنيوية ومثل عالم ما بعد الحداثة التى عرَّفها البعض بأنها «نسيان نشط للماضى والتاريخ».

انطلاقًا من هذا اللانهائى الكمى أصبح الإنسان الغربى يُعرِّف النمو باعتباره نموًا كميًا صرفًا فى الإنتاج والاستهلاك ، بصرف النظر عن أية غائية إنسانية ودون الرجوع إلى مشروع إنسانى أو إلى صفة الحياة . ويصبح النجاح التكنولوجى هو المعيار الوحيد حتى لو كان نجاحًا مدمرًا ، ويصبح التنظيم الاجتماعى الصارم هو وحده الهدف حتى لو أدى إلى الاضطهاد والتفاوت . وانطلاقًا من اللانهائى الكمى ظهر الايمان بإمكانية النمو اللانهائى للعلوم والتقنيات الذى يعنى نموًا متصاعدًا للسيطرة والربح والاستهلاك .

وانطلاقًا من هذا المنظور نفسه تعمل المجتمعات الغربية «كما لو أن كل ما هو ممكن تقنيًا أمرًا مرغوبًا فيه ، ضرورى ، سواء أكان ذلك صنع أسلحة نووية أكثر قوة باطراد ، أم صنع سيارات أو طائرات أكثر سرعة باطراد حتى ولو لم يستهدف الذهاب بها إلى أى مكان) أم إطالة الحياة دائمًا أكبر قدر يستطاع (حتى ولو كانت حياة نباتية خالصة تجعل المحتضر موضوع عرض علاجى مسرحى وضحيته فى آن واحد)» .

وانطلاقًا من اللانهائى الكمى» تعمل المجتمعات الغربية المسماة «متطورة» تبع المبدأ الذى كان فيما سلف مبدأ المغالطين : خالق

حاجات ورغبات تتصف بأنها مصطنعة إلى أبعد مدى ، ومؤذية أعظم الإيذاء ؛ من أجل اللجوء من ثم لإنتاج وسائل إروائها» .

وفى إطار اللانهائى الكمى يتم استبعاد أى مفهوم للتنمية الشاملة : تنمية إمكانات الإنسان الجسدية (نمو جسمه وقوته ومرونته) ، والإمكانات الفكرية - الابتكارات الإنسانية والإبداعات الأدبية) ، والإمكانات الروحية (العلاقات الأخوية وعلاقات الحب مع الآخرين)، وإمكانات المشاركة الجمعية حيث يشارك كل امرئ مسئول فى مشاريع مشتركة ، وإمكانات بلوغ مستقبل مفتوح على آفاق لا نهاية لها ، وإسهام موصول للإنسان فى هذا العمل المبدع الأولىّ الدائب الذى به يتكشف حضور الإله فى الإنسان ، أو اللامتناهى فى المتناهى . وانطلاقًا من اللانهائى الكمى تم تصنيف الشعوب والحضارات بحسب معيار وحيد ، وهو «التاريخ القومى» بالمعنى الاقتصادى المادى المباشر . وتم إنكار جميع الثقافات الغربية وهدمها ، وكل الطرائق الأخرى التى تتناول بالفكر والحياة علاقة الإنسان بالطبيعة وبالبشر وبالإله .

وهنا يكشف جارودى الغطاء عما يسمونه «التراكم الرأسمالى» (وما أسميه «التراكم الأمبريالى»): «إن شرط «نمو» الغرب إنما كان بالضرورة وليد نهب ثروات القارات الثلاث ونقلها إلى أوربا وإلى أمريكا الشمالية ، وبالمقابل فإن الغرب هو الذى جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفًا» إن النمو والتخلف عنصرا منظومة الرأسمالية . وتراكم رأس المال الأولىّ ، ثم الإنتاج الموسَّع تطورا خلال مراحل عدة : إبادة هنود

أمريكا بدءًا من القرن السادس عشر نخاسة العبيد السود التى أصبحت ضرورية لاستغلال المعادن - أراضى أمريكا التى قلّ سكانها نتيجة تلك الإبادة الجماعية - «الثورة الاقتصادية» (التى جعلها التكديس أمرًا ممكنًا) - «الحركة الاستعمارية» أى السيطرة السياسية والعسكرية على أفريقيا وعلى القسم الأكبر من آسيا لتأمين الاستثمارات ذات الربح الأعظم فى الصناعة وفى التجارة ، وذلك بفرض السعر الأدنى على اليد العاملة ، والأسعار الأعلى للمنتجات المستوردة فرضًا بالقوة .

«وأخيرًا ، ظهر استغلال العالم الثالث على نحو جديد بنشأة الشركات متعددة الجنسيات وتوسعها ، ومن ثم لم تبق علاقات الاستغلال ثنائية الجانب بين البلد المستعمر ومستعَمرته . إن الشركات متعددة الجنسيات ، وهى غريبة عن حدود الدول فى (الغرب) أو فى سائر أنحاء العالم ، تُنظّم نهب العالم ، لا على الصعيد القومى كما كان الأمر ، بل على الصعيد العالمى ، سواء بالاستناد إلى قوة عظمى (الولايات المتحدة مثلاً) من أجل توجيه اقتصادها وسياستها واستخدام جهازها العسكرى (كما جرى فى جواتيمالا أو فى فيتنام) تارة ، أو باستخدام مؤسسات دولية فى سنة ١٩٧٦م ، وهى تنهض داخلها بدور حاسم تارة أخرى».

وتظهر الموضوعات نفسها فى وعود الإسلام حيث يشير جارودى مرةً أخرى فى بداية كتابه إلى أن «الغرب من منظور آلاف السنين هو

أكبر مجرم فى التاريخ» . ومرة أخرى نصل إلى «عصر النهضة» - هذا الاجتياح الغربى للعالم: «كل اجتياح ، كل سيطرة ، هو نكوص فى تاريخ البشر» . كان المؤرخون عادةً يشيرون إليه باعتباره «غزوات البرابرة» . وكأن الأمر اختلف تمامًا مع عصر النهضة إذا أصبحت الاجتياحات «اكتشافات» عظمى . ومع ذلك فما أهمية أهرامات ٧٠,٠٠٠ من الجماجم التى شيَّدها تيمورلنك بعد الاستيلاء على أصفهان إزاء الإبادة الجماعية للملايين من هنود أمريكا التى قام بها الـ «فاتحون» الأوربيون ، المزودون بالمدافع ، وإزاء خراب أفريقيا بإبعاد ١٠ إلى ٢٠ مليون من السود من بلادهم ، استعبادًا . وهو ما يمثل ، إذا حسبنا عشرة قتلى مقابل كل أسير ، رقمًا من ١٠٠ إلى ٢٠٠ مليون من الضحايا) ، وإزاء مذبحة آسيا ، من حرب الأفيون إلى المجاعات التى أودت بحياة ملايين الهنود بسبب تدابير الملكية وفرض الضرائب التى أُلزموا بها ، ومن قنبلة هيروشيما إلى حرب فيتنام ؟

أى اسم يُطلَق على هذا الشكل من هيمنة الغرب العلمية الذى أنفق ٤٥٠ مليار دولار فى التسلح عام ١٩٨٠م والذى سبَّب موت ٥٠ مليونا من الكائنات البشرية فى العالم الثالث نتيجةً للعبة المقايضات غير المتساوية ؟ » .

إن فاوست رمز الحرية فى الكتابات الأولى لجارودى يتحول هنا إلى «الرمز المأساوى لثقافتنا الغربية» ، فهذه الحضارة نهبت العالم وهدمت الحضارات ولكنها لم تأت بالسعادة أو بالاتزان للجنس البشرى

وينطبق ذلك على الإنسان الغربي نفسه . وقد كشفت لنا هذه الحضارة أنها تودى إلى التفكك والموت وأنها قادرة ، خلال أربعة قرون على أن تحفر قبرًا يكفى لدفن العالم ، ومن ثم أصبحت هذه الحضارة «مؤهلة للانتحار» الذى يتبدَّى فى فقدان الهدف (الفرار إلى المخدرات - انتحار المراهقين بأعداد أكبر فى الأصقاع الأغنى) ، وفى الإفراط فى الوسائل (نضوب المصادر الطبيعية تلوث الطبيعة باعتبارها مستودعًا للنفايات ومعملاً لمعالجتها) . »

مشروع الأمل :

المعركة فى الوقت الراهن فى نظر جارودى - لم تعد معركة بين الرأسمالية والاشتراكية ، (فى التطبيق السوفيتى) تبنت أهداف النمو نفسها التى تبناها الغرب الرأسمالى ، ولذا أصبحت هى الأخرى ظالمة لشعبها ذاته ، مستغلة للعالم الثالث ، وشريكة فى السباق نفسه إلى الهيمنة وامتلاك أسلحة الرعب . إن معركة عصرنا من ثم هى ضد الميثولوجيا الانتحارية للـ «تقدم» وللـ «نمو» على المنوال الغربى ، وضد الأيديولوجيا التى تتسم بالانفصال بين العلوم والتقنيات (تنظيم الوسائل والقدرة) من جهة ، والحكمة (التبصر بالغايات وبمعنى حياتنا) ؛ وهذه الأيديولوجيا متميزة بإشارة متطرفة لفردانية تبتر الإنسان عن أبعاده الإنسانية. .

ويشير جارودي إلى أن يكون هناك «نظام اقتصادي عالمى جديد ولكن لا يمكن أن يوجد مثل هذا النظام بدون نظام ثقافى عالمى

جديد . وجوهر النظام الثقافى العالمى الجديد هو الانتقال مـــن الهيمنـــة الغربية إلى التشاور على مستوى الكرة الأرضية لإعادة تحديد مواصفات مشروع إنسانى شامل - «مشروع الأمل» فالحوار بين الحضارات أصبح ضرورة ملحة إنه مسألة بقاء . ومهمتنا هى أن نعقد الحوار من جديـــد بين الحضارات الشرق والغرب لكي تضـــع حـــداً لمنولـــوج الغـــرب الانتحارى .

والانتحار - فى معجم جارودى - مرتبط تمام الارتباط بالكفر، وهى كلمة لها معنى محددِ عنده ، فهو يُعرِّف الكفر باعتباره «النظر إلى الأشياء كما لو كانت مستقلة عن أصلها وغايتها ومعناها». فالكفر ، مـــن ثم (على سبيل المثال) هو رؤية السوفسطائيين القدامى الذيـــن نظـــروا إلى العالم فلم يجدوا سوى مادة تتحرك حركة لا معنى لها ، لا يمكن للإنسان أن يتحكم فيها أو أن يدركها ، وإن أدركها فليس بإمكانه إن يوصـــل إدراكه للآخرين ، فاللغة الإنسانية أداة غير طيعة بـــل معطبـــة ، وإن وصل الإدراك فلا فائدة تُرجى ، إذ إن النظرية لا علاقة لها بالممارســـة. فالعالم فى حالة سيولة مطلقة ، لا توجد فيه حقيقـــة أو حـــق ، إذ إن كل الأمور نسبية بشكل مطلق ! عالم شرير وزمان ردىء قبض الريـــح وباطل الأباطيل .

والسوفسطائيون فى هذا لا يختلفون عن بعض الفلاسفة المحدثين ممـــن يُنكرون وجود هدف أو غاية عظمى فى الكون ، إذ لا يوجد ســـوى «قصص صغرى» لا يربطها ، أو بمعنى آخر لا يوجد سوى تفـــاصيل وعبث ، وأهداف مؤقته . وإذا كان الفيلسوف القديم قد أكد لنـــا أن

المرء لا يستطيع أن يستحم فى النهر الواحد مرتين ، فإن الفيلسوف العبثى الحديث قد وضع مقدرة الإنسان على الاستحمام ذاتها موضع الشك ، أما نتيجة الاستحمام فهى ضرب من ضروب الغيب .

فى مقابل هذه السيوله المعرفية والأخلاقية ، هذه النسبية المطلقة ، يضع جارودى الرؤية الإسلامية للواقع ، التى تنطلق من فكرة التوحيد والتى تعطى لكل حياة ولكل شئ معنى بالنسبة لعلاقته بالكل . وهذا التوحيد ليس توحيداً جامداً ، فالتوحيد الحقيقى هو «فعل من الله دائم الخلق ، فعل من النبى ، الذى بكلامه ، الموحى به من الله ، يكون ليس وحدة أو جملة ولكن فعل توحيد ، فعل تجميع ، فعل لكل إنسان يعى أنه ليس ثمة إلهى وحقيقى إلا الله وأنه فى كل لحظة يربط كل شئ وكل حادث وكل عمل بمبدئه » .

وتتبدَّى هذه الرؤية التوحيدية فى فكرة أن الإسلام تسليم ، أى امتثال للإرادة الإلهية ، وأن كل الأشياء بمعنى من المعانى «موحَّدة» ، فمثلاً : الشجرة فى ازدهارها ، الحيوان فى نموه ، الحجر فى جماديته . لكن هذا التسليم لا يتعلق بها ، فهى لا تملك الإفلات من القانون الذى يحكمها ، فالإنسان هو وحده القادر على «نسيان» طبيعته الحقيقية .(قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسَى) كما قيل له فى القرآن (سورة طه ١٢٦) . فهو يصبح مسلماً إذن بالاختيار ، وذلك بتذكره الشريعة الأولى ، شريعة التوحيد التى تعطى معنى لحياته ، وهو مسئول مسئولية تامة بما أنه يملك إمكانية الرافض .

ومن خلال التوحيد تظهر فكرة الجماعة المتماسكة المسئولة أمام الله، والإنسان الحر المسئول المتسامي (الذى يحلم باللامتناهى). والتسامي والجماعة /الأمة هما الإسهام الذى يستطيع الإسلام اليوم أن يقدمه لخلق مستقبل ذى وجه إنسانى ، فى عالم الأمر الواقع الذى يسيطر عليه نموذج جنونى للنمو .هذا الواقع الذى دمَّر الجماعة وسوَّد الحتمية المادية واستبعد السمو واللاتناهى فسقط فى اللامتناهى الكمى وأصبح الإنسان جزءاً من بنَى أكبر منه تتكسر عليه حريته واستقلاليته ومسئوليته .

من الماركسية الفاوستية إلى التوحيد الإسلامى ، الموضوع ذاته ، والرؤية ذاتها ، والبحث الدؤب ذاته ، بحث لم يتغيَّر عن المعنى والعدل ، فالإيمان بالبعُد اللامتناهى فى الإنسان أصبح إيماناً بوجود الله خالقاً دائما مستمراً فى الكون ، إله يدعو الإنسان إلى أن يسمو وأن يتجاوز واقعه المادى .

حضور الإله :

ولكن إذا كان الإنسان واللامتناهى متلازمين ، فإن الأسطورة تصبح عنصراً أساسياً فى الوجود الإنسانى . يشير جارودى فى واقعية بلا ضفاف إلى تعريف الأسطورة عند ماركس بوصفها وسيطاً بين البناء التحتى والبناء العلوى . وكلمة «وسيط» هنا هى بقايا المثالية الألمانية فى خطابه، والتى تحاول أن توجد توازناً كاملاً بين الطبيعة والإنسان وبين الروح والمادة ، ومن ثم فهى تدخل بنا جميعاً فى نهاية التاريخ والعنصرية وإدارة القوة ، أى فى الطريق المسدود الذى أدخلتنا فيه

الحضارة الغربية الحديثة ، ولذا فهو يُسقط هذا التعريف ليصل إلى تعريف أكثر رحابة يؤكد اللامتناهى ، فيُعرف الواقع الإنسانى بأنه لا يقتصر على ما هو قائم ، وإنما ما سيكون عليه فى المستقبل. فأحلام الإنسان وأساطير الشعوب هى خميرة المستقبل . الوسيط والأساطير ، تتجاوز الواقع إلى ما وراء الواقع . ولذا فمهمة الأساطير العظيمة هى التذكير دائماً باللامتناهى وإثارة الرغبة فى السعى إليه .

وفى الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ينبهنا جارودى مرة أخرى لهذه الحقيقة، فأساطير الإنسان الكبرى رسمت خطوط ملحمة الإنسان ، وعبَّرت بفضل سردها لبطولات الآلهة أو الأجداد الأقدمين عن اللحظات العظيمة فى مسيرة هذا الإنسان ووعيه بقدراته وواجباته ورسالته فى التفوق على واقعه المادى من خلال صورة ملموسة تولدت عن تجربته وآماله ، فهو دائماً يصبو إلى شأن أسمى لمستقبله تحقق فيه كل أحلامه فى السعادة والخلاص . الأسطورة لم تتولد عن التجربة الواقعية المادية وحسب ، وإنما عن الآمال والأحلام ، فحلم الإنسان بالسعادة والخلاص هو ما يعطى لحياته معنى وهدفا وغاية . والغايات تلعب دوراً محركاً بقدر ما تلعب الأسباب (كما قال جاودى فى كتابه فى سبيل حوار الحضارات) فليست المسألة هى سبب ونتيجة (كما تؤكد الحتمية المادية) وإنما هى سبب وهدف وإرادة إنسانية ثم نتيجة . ولأن خميرة اللامتناهى مكون أساسى فى الإنسان ، فكل تاريخ مقدَّس (يومئ إلى اللامتناهى) هو «ضد التاريخ» (المادى الواقعى) ، وعبَّر أندريه مالرو عن الفكرة ذاتها حين قال: «كل أثر فنى هو ضد القدر»، أى إنه إبداع إنسانى يقف فى وجه المادة وقوانين الحركة

الحتمية التى يمجدها الماديون رغم أنها تسحق الإنسان وتسعى بخطى حثيثة نحو خلق «فراغ الإنسان المختفى» ، فهى مثل دراكيولا أو فرانكشتين أو تلك الوحوش التى تزخر بها هذه الأيام السينما الأمريكية «التى حوّلت رؤية فوكو المرعبة إلى تسلية، أو لسنا فى عصر ما بعد الحداثة ؛ حيث يتم تطبيع الاغتراب وتسطيح الآلم وتقبّل الأمر الواقع (البنك الدولى وصواريخ الكروز) وكأنها أمور نهائية ؟

والتاريخ المقدَّس (لا التاريخ المادى الواقعى) هو التاريخ الحقيقى للبشرية ، أى تاريخ عظمة الإنسان وتطلعه إلى اللامتناهي . والأسطورة هى تعبير عن هذا التاريخ المقدَّس . انظر مثلاً إلى أسطورة أوزيريس ، رمز علاقات الإنسان بالطبيعة والآلهة :«إن (أوزيريس) إله مزّقه خصومه ، ولكنه يُبعث عندما تجمع أخته (إيزيس) ، بدافع حبها ، أشلاءه المبعثرة . إنه إله يُولَد من جديد فى كل صباح ، كالشمس ، بعد أن يجتاز مملكة الأموات . إله يعودفى كل ربيع فيظهر مع ظهور النبات الجديد . وهو أخيراً إله يتخذ انبعاثه قانوناً كلياً للحياة ، وللطبيعة ، والتاريخ» .

والفن المنبعث من هذه الأسطورة هو تعبير عن الإيمان بقدرة البشر وهى تميط اللثام عن حضور الإله ، تماماً مثل تلك الأهرامات التى يصفها جارودى بأنها :«قصائد حقيقة ، خيام مدهشة من الحجر الصوان ، صور عالم بناه الإنسان» . وإذا كانت حركة المادة والتاريخ الواقعى (الذى ينكر التسامى واللامتناهى) تكتسح الثوابت والأخلاقيات ، فإن الأسطورة / التاريخ المقدَّس منظومات أخلاقية خالدة . ويضرب لها

جارودى مثلاً على ذلك من كتاب الموتى الــذى وردت فيــه هــذه العبارات التى يُردِّدها الميت لحظة حسابه : «لم أجعل أحداً يبكــى ، لم أسبب إيلام إنسان» . كما ورد وصف للإنسان الخيِّر باعتبــاره قــد «أعطى الجياع خبزاً ، والعطاش ماءً ، وكسا العراة» .

حساب الأرقام الجنائزى :

ولكن إلى جانب هــذا الاحتفاء بالإنسان ، هناك التــاريخ غــير المقدَّس الذى كتبه المنتصرون ، ولذا فهم لا يتحرجون من اســتخدام الأساطير لمصلحتهم عن الاقتضاء ومن ربطها بعجلة انتصاراتهم ، أى إن الأسطورة هنا تتحول إلى إرادة فى يد الغازى لقمع أحــلام الإنســان وتطلعاته . ويضرب جارودى مثلاً على هــذه الأســاطير القمعيــة : أسطورة ماراثون وأسطورة معركة بواتييه بين شارل مــارتل وكتيبــه «فدائية عربية» ، وكلاهما ليس له أى أساس فى الواقــع التــاريخى ، ولكنهما خُلقا تخليقا وأصبحا رمزاً لانتصار الحضــارة الغربيــة علــى الآخر ، فالعالم هنا ينقسم وبحدة إلى الغرب واللاغــرب ، أو كمــا يقولون بالإنجليزية «ذا وسـت آند رســت the west and the rest»، والغرب هنا هو الشعب المختار وبقية العالم شعوب منبــوذة ،ويبيِّــن جارودى أن كلا الأسطورتين لا يُعبِّران عن اللامتناهى الكيفى الإنسانى وإنما هى عملية تزييف لوقائع التاريخ لتمجيد الذات علــى حســاب الآخر.

ولم يُطبق جارودى رؤيته للأسطورة على الحضارة الغربية وحسب ، وإنما طبقها كذلك على الظاهرة الصهيونية . وفى مجموعة من الدراسات

أولها كتاب ملف إسرائيل : الصهيونية السياسية ، وثانيها كتاب فلسطين أرض الرسالات الإلهية ، وأخيراً كتاب الأساطير المؤسسة لإسرائيل (الصادر عام ١٩٩٦م وتمت ترجمته للعربية فى العام نفسه) . ورغم أن هذه الدراسات متفرقة لكل منها إسهامها المهم ، إلا أنها تَصدُر عن الرؤية نفسها وتستخدم المنهج نفسه ، ولذا سنعتبرها وحدة متكاملة (وإن كنا سنركز على الأساطير المؤسسة لإسرائيل) .

وقد قام جارودى بتحديد نقطة انطلاقه ومنهجه ، كما حدد بصرامة بالغة سياق نقده للصهيونية ولمراجعته لبعض المسلمات الخاصة بالإدارة النازية لليهود .

١ – بيَّن جارودى أن اليهودية عقيدة دينية أما الصهيونية فعقيدة سياسية ، وأن إسرائيل التوراتية رؤية دينية أما إسرائيل الصهيونية فحقيقة مادية . وطريقة دراسة الواحد تختلف عن طريقة دراسة الآخر ، وما يقوم به الواحد لا يمكن أن يُنسب للآخر . فسياسة إسرائيل الداخلية المبنية على الإرهاب العرقى وسياستها الخارجية المبنية على العدوان التوسع ، ليست بالضرورة أموراً نابعة من العقيدة اليهودية ولا تتمتع بأية قداسة .

٢ – يؤكد جارودى بما لا يقبل الشك تمييزه بين التوراة والتفسير الصهيونى لها ، «فنقد التفسير الصهيونى للتوراة والأسفار التاريخية (وبخاصة سفر يشوع ، وسفر صموئيل ، وسفر الملوك) ، لا يمس بأية حال من الأحوال التوراة وما جاء فيها من معتقدات دينية ..

فتضحية سيدنا إبراهيم هى المثال الخالد على تفـوق الإنسـان علـى أخلاقياته العابرة وعلى منطقه الضعيف باسم القيم المطلقه . كمـا أن «الخروج« سيظل هو رمز التخلص من كل أنواع العبودية ، وعلى نداء الرب الذى لا يُقاوَم نحو الحرية» . إن هذا الجانب من العقيدة اليهوديـة والتوراة هو تعبير عن اللامتناهى فى الإنسان ، وعن المقـدَّس ، ولـذا فجارودى يحتفى به ويضمه إلى الدلائل العديدة على عظمة الإنسـان وتطلعه إلى الإله ؛ إنه تعبير عن الأسطورى بالمعنى الإيجابى .

٣ – يؤكد جارودى التزامه بالقيم الأخلاقيـة المطلقـة ، فليـس الغرض من كتابه (كما يقول) «القيام بعملية حسابية جنائزية» لعـدد ضحايا الإبادة النازية لليـهود أو «مسـك دفـاتر حسـابية مؤلمـة ومفجعة» ، فهذا يشكل سقوطاً فى العقلية التكنولوجيـة والعقلانيـة المادية ، أى فى «اللامتناهى الكمى» فقتل إنسان برئ واحد ، سـواء كان يهودياً أم لم يكن ، هو جريمة ضد الإنسانية ، ولا مجال للنقـاش فى هذا .

٤ – يهاجم جارودى وبلا هوادة العنصرية الموجهة ضـد اليـهود ومحاولة الحط من قدرهم والدعوة إلى الحق عليـهم واضطـهادهم ، ويخص كتاب بروتوكولات حكمـاء صـهيون بـالذكر فيشـير إلى أنصندد به فى كتابه فلسطين أرض الرسالات الإلهية باعتبـاره وثيقـة مزيفة (وأسطورة قمعية) ويعبِّر عن أسفه لاستخدامه فى بعض البلـدان العربية .

٥ – يؤكد جارودى ضرورة الدراسة الهادئة للقضية ؛ ولذا فقد كان حريصاً كل الحرص على عدم تقديم أية أطروحة إلا وهى معززة بالمصادر .

٦ – يُبين جارودى أنه لم يأت بالحقيقة اليقينية النهائية فكتابه لا يزال «عرضاً مؤقتاً» ، وهو «ككل تاريخ انتقادى وككل علم من العلوم ، قابل للمراجعة والتنقيح طبقاً لاكتشاف عناصر جديدة .

ما يرفضه جارودى هو «القراءة الصهيونية القَبَلية والقومية للنصوص اليهودية المقدَّسة ، باختزالها الفكرة الهائلة لعهد الله مع الإنسان ، ومع كل الناس ، ووجوده فى داخلنا جميعاً ، لاستنتاج أشر فكرة فى تاريخ الإنسانية ألا وهى فكرة «الشعب المختار» الذى اختاره رب متحيز وجزئى (ومن ثم صنم) ، ولذلك للتبرير المسبق لجميع أنواع السيطرة والاستعمار والمذابح . كما لو كان تاريخ العبرانيين أو التاريخ المقدَّس هو التاريخ الوحيد فى العالم .

إن الهدف من الكتاب ليس أكاديمياً بارداً وإنما هى قضية حية، «قضية الاستغلال السياسى من دولة لم يكن لها وجود عندما اقتُرحت الجرائم (النازية) ، وقضية المبالغة فى أرقام الضحايا بصورة تعسفية لمحاولة إثبات أن معاناة البعض لا وجه لتشبيهها بمعاناة الآخرين وإضفاء القداسة عليها ، وهى محاولة لصرف النظر عن مذابح أشد قسوة .

وأكبر المستفيدين من هذا هم الصهاينة ، الذين أظهروا أنفسهم بمثابة الضحايا دون سواهم وأنشئوا إثر ذلك دولة إسرائيل ، ووضعوها فوق كل قانون دولى» .

إقامة العدل فى الأرض :

هذه هى القضية ، وهذا هو وحده الجدير بالدراسة ، ويؤكد جارودى أنه لم يدر بخلده قط فكرة تدمير دولة إسرائيل ، فكل ما يريده هو ببساطة أن يُبطل عنها صفة القداسة ، وأن يدعو إلى تجاوز النسبية الداروينية التى تكرس «علاقات الغاب» أى الأمر الواقع الذى نشأ من خلال «طلقات المدافع» . إن ما يطالب به هو إحقاق الحق وإقامة العدل فى الأرض.

ويمكن إنجاز هذا المطلب الإنسانى المشروع ، فى حالة الشرق الأوسط عن طريق تطبيق القرارات التى اتخذتها الأمم المتحدة ، أى المجتمع الدولى، «وهى القرارات التى تستنكر وتمنع التوغل داخل حدود البلدان المجاورة والاستيلاء على مياهها ؛ والتى تنص على ضرورة الجلاء عن الأراضى المحتلة» . ويؤكد جارودى أن الاستمرار فى إقامة المستوطنات داخل المناطق المحتلة بطريقة غير شرعية ، هو احتلال يجعل من المستحيل إحلال سلام حقيقى وتعايش سلمى ودائم للشعبين المتساويين والمستقلين ، وهو السلام الذى يرمز إلى الاحترام المتبادل ، دون ادعاء بملكية القدس ، أرض اللقاء بين الديانات الثلاث » .

الأمر واضح لا ليس فيه ، ونقطة الانطلاق نقدية ، تفكيكية تركيبية ، أخلاقية إنسانية ، ترفض العنصرية في كل أشكالها سواء كان موجهة ضد اليهود أو الفلسطينيين ، فلا يوجد شعب مختار وشعوب منبوذة ، ومن وجهة نظر إسلامية لم يختر الله شعباً بعينه وإنما اختار كائناً بعينه وكرمّه وهو الإنسان وحجة الوداع ، آخر خُطب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليست موجهة للمسلمين فقط وإنما لكل الناس ، ويشير جارودى فى وعد الإسلام إلى قول الله تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ . سورة الحجرات الآية ١٣ .

هذا هو الإطار العام وانطلاقاً منه يحاول جارودى تحطيم بعض الأساطير المغلقة التى تستند إليها الدولة الصهيونية :

١ – أسطورة الوعد :

تستمد أولى الأساطير ، أسطورة «الوعد» ، أصولها من الوعد الإلهى لإبراهيم فى سفر التكوين . ومعظم المفسرين أخذوا الوعد المعطى للآباء بمعناه الكلاسيكى باعتباره إضفاء للشريعة بعد الأحداث على الغزو الإسرائيلى لفلسطين ، أو امتداداً للسيادة الإسرائيلية فى عهد دواد .

٢ – أسطورة الشعب المختار والنقاء العرقى :

تذهب الأسطورة الصهيونية إلى أن اليهود شعب مختار ، لم ينفتح على الآخرين فاحتفظ بنقائه العرقى أو الإثنى . ويُكذّب التاريخ والواقع هذه الدعوى تماماً ، فالعبرانيون منذ استقرارهم فى كنعان قد اختلطوا

عرقياً وثقافياً بالشعوب المحلية (بشهادة الكتاب المقدّس ذاته) ، وعبر التاريخ اختلط أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم من خلال الزواج مع بقية الشعوب ، كما تم المزج كذلك عن طريق التحول الدينى (التهوّد) .

وقد ولّدت هذه الأساطير المغلقة سمة تعتبر من أميز سمات المستوطن الصهيونى وهى سمة «إبادة الآخر» . فواقع التطهير العرقى الذى يُمارَس بشكل منتظم فى دولة إسرائيل اليوم ، ينبع من مبدأ النقاء العرقى الذى يمنع امتزاج أعضاء الشعب المختار بالشعوب الأخرى ، سواء من الناحية العرقية أم الناحية الثقافية . ومبدأ التوسع والاستيطان هو ثمرة فكرة أسطورة الوعد . والترانسفير (أى طرد الفلسطينيين من وطنهم) هو النتيجة الحتمية للمنطق الداخلى للصيهونية . ثم ينتقل جارودى بعد ذلك إلى الأساطير الصهيونية الخاصة بالإبادة .

وبعد ..

هذه جولة قصيرة للغاية فى عقول بعض المفكرين (اليهود وغير اليهود) تكشّفنا من خلالها موقفهم من اليهود والمسألة اليهودية والصهيونية.

وموضوع اليهود كما بين هذا الكتاب موضوع مركب وخلاق، ولكن ما يهمنا نحن العرب، أن ما قد يكون قد حاق باليهود من ظلم وتعسف فى العالم العربى لا يعطيهم أى حق فى فلسطين ،

واستخدام الديباجات المختلفة فى تبرير الاستيلاء على فلسطين هو غش وتدليس ، وأصحاب الحق ، أصحاب الأرض لم يختفوا كما كان مقدراً لهم. وهم لايزالون يطالبون بحقوقهم وأرضهم ويرفضون التفريط فيها. والصهيونية - رغم كل الديباجات اليهودية وغير اليهودية هى حركة استعمارية استيطانية، استولت على أرض الفلسطينيين بالقوة ، وبدون وجه حق، ولذا فالحرب ضد الصهيونية ، هى حرب قد تكون قومية أو دينية ولكنها تظل فى صميمها حرباً إنسانية لاستعادة الحقوق الضائعة.

ولاشك أن القضية تحتاج لمزيد من الدراسة المفصلة ولكن حيز هذا الكتاب قد فرض حدوده علينا، ولعله قد يكون لنا فرصة فى المستقبل نتناول ما لم نتناوله فى هذا الكتاب (إشكالية نفع اليهود ، وموقف الكُتّاب اليهود (الصهاينة) مثل بياليك وتشرنحوفسكى من القضايا التى تناولها هذا الكتاب. والله أعلم .

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

– داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهًا.

– الدول العربية واتحاد البريد العربى ٨٠ دولارًا أمريكيًا.

– الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدمًا نقدًا أو بشيكات.

بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل – ماسبيرو – القاهرة